مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مَجَلَّةٌ - إسلامِيَّةٌ - ثَقَافِيَّةٌ - جَامِعَةٌ - مُحَكَّمَةٌ

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ

كُلِّيَّةِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

العددان التاسع والعشرون والثلاثون

لسنة 1436 – 1437 الهجرية الموافق: 2015 – 2016 الميلادية

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

النَّشْأةُ وَالخُصُوصِيَّةُ

أ.د. المختار أحمد ديرة
كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس - ليبيا

البحث في أصل اللُّغات، ووضعها لألفاظها، من قبيل البحث في الغيبيات، ويكاد يكون العمل فيه عملاً قليل الجدوى، ضعيف النتائج، وهو ضرب من التخيّل والافتراض؛ وذلك لأن نشأة اللُّغات الأولى مغيّبة عنا، وتفصلنا عنها حلقات منقطعة، مفقودة، بما يتعذّر وصلها؛ لذلك نشأ خلاف بين فريقين يبحثان في نشأة اللُّغة، ولم يصلا إلى ما يُرضي الطرفين.

وعلى كلّ حال، حاولت في هذه الدراسة أن أُلقي الضوء على نشأة اللُّغة، ورجعت إلى بعض من أمهات الكتب التي تعرضت لهذا الموضوع، وهنا أسجّل ما وسعني تسجيله حيث وجدت:

اللُّغة: اسم مأخوذ من اللغو؛ أي: الكلام، وقد حُذفت الواو لغير علّة، وعوّضت عنها تاء، وتُجمع على لُغات ولُغون، وقيل منها: (لغي، يلغى) إذا هذى، أي: تكلّم باللغو، وخلط في الكلام، والماضي مثل سعى، ورضي ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾(1)، حكاية عن قول الذين كفروا؛ أي: لا تنتبهوا لهذا الكلام، وتحدّثوا فيه بما لا يليق به من لغو

(1) سورة فصلت، من الآية: 26.

الكلام وباطله، وفي شرح مسلم أن ماضيه (كرضي) أخذ من رواية ابن مسعود «إذا قلت صَهْ، عند الخطبة فقد لغِيت» بكسر الغين[1].

وقرئ أيضا (والْغُوا فيه) بضم الغين[2].

وفي رواية أُخرى للحديث «من قال في الجمعة صَهْ فقد لغا» أي: تكلّم.

والحاصل أن في الفعل «لغا» ثلاث لُغات: لغا من باب دعا، ولغى من باب سعى، ولغِي من باب رضي. وكلٌّ منها فصيح[3] ومن هذه المادة «اللغو» قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[4] هنا الباطل.

وقوله ﷻ: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾[5]، أي: فاحشة، وهو على النسب، أي: كلمة ذات لغو.

وقوله ﷻ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾[6]، اللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه القلب. مثل قولك: لا والله، وبلى والله. قال الفرّاء: «كأن قول عائشة: إن اللغو ما يجري في الكلام على غير عقد. قال الشافعي: اللغو في لسان العرب، الكلام غير المعقود عليه. وقال الأصمعي: لغا يلغو، إذا حلف بيمين بلا اعتقاد، وقيل معنى اللغو: الإثم، والمعنى: لا يؤاخذكم الله بالإثم في الحلف إذا كفّرتم»[7].

وأما تصريفها، ومعرفة حروفها، فإنها «فُعلة» من لغوت؛ أي: تكلمت، وأصلها لغوة ككرة، وقُلة، وثبة، كلها لاماتها واوات، لقولهم: كورت بالكرة، وقلوت بالقلة؛ ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب[8].

(1) **مسند الإمام أحمد**، 2/ 244.
(2) **البحر المحيط**، 7/ 494، وهي قراءة شاذة.
(3) القنوجي، **البلغة في أصول اللُّغة**، دار البشائر الإسلامية، ص70.
(4) سورة الفرقان، من الآية: 72.
(5) سورة الغاشية، الآية: 11.
(6) سورة البقرة، الآية: 225.
(7) **لسان العرب**، مادة: ل غ و.
(8) ابن جنّي، **الخصائص**، 1/ 33.

ما تقدّم هو تعريف كلمة «لُغة» في اللُّغة. وأما في الاصطلاح، فقد اختلف اللُّغويون في تعريفها، فهذا ابن جنّي يقول: «إنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»[1].

كما عرّفها ابن الحاجب: «بأنها كلّ لفظ وُضع لمعنى». والتعريف الذي قد يجمع بينهما هو أن اللُّغة أصوات، وألفاظ مرتّبة على نسق معيّن، تترجم الأفكار التي تجول في النفس إلى عبارات وجمل، تواضع عليها أهلها.

وضع اللُّغة:

هذا موضوع اختلف فيه العلماء، فمنهم من يقول بأن اللُّغة توقيف ووحي، ومنهم من يرى أنها اصطلاح وتواطؤ، وهاك بعض التفصيل:

1 - إن الواضع هو الله سبحانه وتعالى، وإلى هذا ذهب الأشعري وأتباعه وابن فورك، قال ابن فارس: دليل ذلك قول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2].

قال ابن عباس ﵄: «وهي هذي الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض، وسهل، وجبل، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها».

وقال مجاهد: «علّمه اسم كلّ شيء، حتى القصعة والقصيعة»[3].

وعن سعيد بن جبير: «حتى البعير والبقرة والشاة واسم الإنسان، واسم الدابة واسم كلّ شيء». وعن قتادة: «علّم آدم من أسماء خلقه ما لم يعلّم الملائكة، فسمّى كلّ شيء باسمه، وألجأ كلّ شيء إلى جنسه»[4].

وسئل عطاء عن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾[5] فقال: هذه ناقة،

(1) المصدر السابق، 1/ 33.
(2) سورة البقرة، من الآية: 31.
(3) **تفسير ابن كثير**، 1/ 95.
(4) **الدر المنثور**، 1/ 49.
(5) سورة البقرة، من الآية: 33.

جمل، بقرة، نعجة، شاة، فرس، وهو من خلق ربي. فكلّ شيء سمّى آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة، وجعل كلّ شيء يدعوه باسمه وهو يمرّ عليه، وبين يديه، فعلمت الملائكة أنه أكرم على الله وأعلم منهم.

قال ابن دريد: «علّمه أسماء ذريته أجمعين»، قال الربيع بن أنس: «علّمه أسماء الملائكة» وقيل: علّمه أسماء الله الحسنى فقط[1].

والذي تطمئن إليه النفس في هذا الموضوع، ما ذهب إليه ابن عباس؛ من أن الأسماء كلها معلّمة من عند الله بالنص، فإن قال قائل: لو كانت اللُّغة كما ذهب إليه ابن عباس لقال: «ثم عرضهنّ أو عرضها»، ولكن لما قال: «عرضهم» علم ذلك أنه لأعيان الملائكة أو بني آدم؛ لأن موضوع الكناية في كلام العرب أن يُقال لما يعقل: «عرضهم»، ولما لا يعقل عرضها أو عرضهنّ، قيل له: إنما ذلك -والله أعلم- لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل، فغلب ما يعقل، وهي سُنّة من سُنن العرب، ذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾[2]، فقال، «منهم» تغليباً لمن يمشي على الرجلين؛ وهو بنو آدم. ولو كانت اللُّغة مواضعة واصطلاحاً، لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا، لو اصطلحنا على لُغة اليوم. وما علمنا عن الصحابة وهم البلغاء الفصحاء أنهم اصطلحوا على اختراع لُغة واحدة، أو إحداث لفظة لم تتقدّمهم، وفي كلّ ذلك دليل على أن أصل اللُّغة، وحي وتوقيف، لا مواضعة واصطلاح. وأن الله سبحانه ذمّ قوماً على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾[3]، ولو لم تكن اللُّغة توقيفية، لما صحّ هذا الذمّ. ومنه أيضاً قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾[4]، والمراد هنا

(1) ينظر: القنوجي، **البلغة في أصول اللُّغة**، ص75-76.
(2) سورة النور، من الآية: 45.
(3) سورة النجم، من الآية: 23.
(4) سورة الروم، من الآية: 22.

اختلاف اللُّغات، لا اختلاف تأليفات الألسن، لعدم اختلافها، فالمراد هنا أيضا اختلاف اللُّغات دون الألسن اللحمية.

قال ابن جني: «إنني إذا تأمّلت حال هذه اللُّغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدتُ فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف، والرقة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا -رحمهم الله- ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وآماده، صحّة ما وفّقوا لتقديمه منه، ولطفَ ما أُسعدوا به، وفُرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند اللّه جلّ وعزّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحي»[1].

وقيل إن الله سبحانه وتعالى، علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللُّغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرية والرومية وغير ذلك من سائر اللُّغات، فكان آدم وولده يتكلّمون بها، ثم إن ولده تفرّقوا في الدنيا، وعلق كلٌّ منهم بلُغة من تلك اللُّغات، فغلبت عليه، واضمحلّ منه ما سواها لبعد عهدهم بها، وإذا كان الخبر الصحيح قد وَرَدَ بهذا، وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به[2].

وهنا يمكن القول إنه إذا ثبت التوقيف في الأسماء، ثبت أيضاً في الحروف والأفعال، إذ لا قائل بالفرق.

2 - فريق يرى أن الواضع للُّغة هو البشر، وإليه ذهب أبو هاشم الجبائي من رؤوس المعتزلة، ومن تابعه منهم، وعلى ذلك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللُّغات، كما اختلفت ألسن الأصوات المرتّبة على مذاهبهم في المواصفات، والدليل على ذلك قوله سجانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[3]، أي: بلغتهم، وهذا يقتضي تقدم اللُّغة على بعثة الرسل[4].

(1) **الخصائص**، 1/ 47.
(2) المصدر السابق، 1/ 41.
(3) سورة إبراهيم، من الآية: 4.
(4) **البلغة في أصول اللُّغة**، ص78.

ويرى بعض هؤلاء أن أصل اللُّغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم تولّدت اللُّغات من بعد ذلك، وهذا عندي مذهب متقبّل ووجه صالح[1].

3 - إن ابتداء اللُّغة وقع بالتعليم من الله سبحانه والباقي بالاصطلاح[2].

4 - إن ابتداء اللُّغة وقع بالاصطلاح والتتمة من الله سبحانه، قال بذلك الأسفراييني[3].

5 - إن نفس الألفاظ دلّت على معانيها بذاتها وهو مذهب عباد بن سليمان الصيمري، واحتجّ بأنه لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بإزاء معنى من بين المعاني ترجيحاً بلا مرجّح وهو مُحال[4].

6 - إنه يجوز كلّ واحد من هذه الأقوال من غير جزم بأحدها، وبه قال الجمهور كما حكاه الرازي في المحصول «واحتجّوا بأن هذه الأدلّة التي استدلّ بها القائلون لا يفيد شيء منها القطع، بل لم ينهض شيء منها لمطلق الأدلّة، فوجب عند ذلك الوقف لأن ما عداه هو من التقوّل على الله بما لم يقل وإنه باطل»[5].

قال السيوطي: «دليل إمكان التوقّف احتمال خلق الله تعالى الألفاظ ووضعها إزاء المعاني، ودليل إمكان الاصطلاح أن يتولّى واحد أو جمع وضع الألفاظ لمعانٍ ثم يُفهموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالدات مع أطفالهن»[6].

(1) **الخصائص**، 1/ 46.
(2) د. رمضان عبد التواب، **المدخل إلى علم اللُّغة**، ص113-116، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.
(3) المصدر السابق، ص115.
(4) المصدر السابق، ص115.
(5) السيوطي، **المزهر**، 1/ 17.
(6) القنوجي، **البلغة في أصول اللُّغة**، ص80-81.

وقال الغزالي: «قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1] ظاهر في كونه توقيفاً، وليس بقاطع ويحتمل كونها مصطلحاً عليها من خلق الله قبل آدم. ولذلك قيل: ذكرها في الأصول فضول، وقيل: فائدتها النظر في جواز قلب اللُّغة، فحكى بعض القائلين بالتوقيف منع القلب مطلقاً، فلا يجوز تسمية الثوب فرساً، ولا الفرس ثوباً، وعن القائلين بالاصطلاح تجويزه»[2].

إن التوقيف وقع في الابتداء على لُغة واحدة وما سواها بعد الطوفان في أولاد نوح عليه السلام، حين تفرّقوا في أقطار الأرض، وقد رُوي عن ابن عباس: «أن أول من تكلّم بالعربية المحضة إسماعيل»، وأراد بها عربية قريش التي نزل بها القُرآن الكريم، وأما عربية قحطان وحمير، فكانت قبل إسماعيل عليه السلام.

قال أهل التحقيق: لا بدّ من التوقيف في أصل اللُّغة الواحدة لاستحالة وقوع الاصطلاح على أول اللُّغات من غير معرفة من المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه. وإذا حصل التوقيف على لُغة واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللُّغات اصطلاحاً، وأن يكون توقيفاً، ولا يقطع لإحداها بدلالة.

فاللُّغة العربية هي أول اللُّغات، وكلّ لُغة سواها حدثت بعدها إما توقيفاً أو اصطلاحاً. واستدلّوا بأن القُرآن الكريم كلام الله وهو عربي، وهو دليل على أن لُغة العرب أسبق اللُّغات وجوداً.

وهناك من يرى أن لُغة العرب نوعان:

1 - عربية حمير، وهي التي تكلّموا بها من عهد هود ومن قبله، وبقي بعضها إلى وقتنا.

2 - العربية المحضة التي نزل بها القُرآن الكريم، وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل، وعلى الرغم من أن صحف إبراهيم وتوراة موسى، وإنجيل عيسى نزلت قبل القُرآن الكريم، إلا أنها كانت كلام الله الذي بعث به

(1) سورة البقرة، من الآية: 31.

(2) القنوجي، **البلغة في أصول اللُّغة**، ص86-87.

أنبياءه، فهذا سيد المرسلين نطق بها ونزل القُرآن الكريم بلسانه، وسينطق أهل الجنة بهذه اللُّغة الشريفة، كما وَرَدَ بذلك الخبر المأثور.

رُوي عن ابن عباس: «أن آدم كان لغته في الجنة العربية، فلما عصى ربه سلبه الله العربية، فتكلّم بالسريانية، فلما تاب الله عليه، ردّ عليه العربية»[1].

قال يونس بن حبيب: «أول من تكلّم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم»[2].

وقال ابن سلام: «أول من تكلّم العربية ونسي لسان أبيه إسماعيل»[3].

وعن جابر قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[4]، ثم قال: «أُلهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً»[5].

وعن أبي عمرو بن العلاء قال: «العرب كلّها ولد إسماعيل إلا حِمْير وبقايا جرهم»[6].

وعن النبي ﷺ: «أول من فتق لسانه بالعربية الجَنِّيّة، إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة»[7].

وعن عمر بن الخطاب أنه قال: «يا رسول الله، ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: كانت لُغة إسماعيل قد دَرَستْ فجاء بها إليّ جبريل عليه السلام فحفّظنيها فحفظتها»[8].

---

(1) أخرجه ابن عساكر في **تاريخه**، 7/ 407.

(2) ابن سلام، **طبقات فحول الشُعراء**، 1/ 9.

(3) ابن سلام، **طبقات فحول الشُعراء**، 1/ 9.

(4) سورة الزمر، من الآية: 28.

(5) **المستدرك**، 2/ 439.

(6) ابن سلام، **طبقات فحول الشُعراء**، 1/ 9.

(7) رواه الشيرازي في **الألقاب**.

(8) **كنز العمال**، 11/ 490.

وعن أبي رافع قال: «قال رسول الله ﷺ عُلّمْتُ الأسماء كلها علم آدم الأسماء كلها»[1].

وللسائل أن يسأل: هل وضعت اللُّغة كلّها في وقت واحد؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: تجمع المراجع أن اللُّغة وقعت متلاحقة متتابعة سواء لمن قال بالتوقيف أو الاصطلاح، وقد يكون السؤال عن أيّ الأجناس الثلاثة: الاسم، أو الفعل، أو الحرف، وضع أولاً؟ والجواب عند أبي علي الفارسي «لا يُدرى ذلك، ويحتمل في كلٍّ من الثلاثة أنه وُضع قبل.

وإن سأل سائل عن طريق لمعرفة اللُّغة العربية؟ قلت: هي إما النقل المحض، كأكثر اللُّغات، أو استنباط العقل من النقل، وأما العقل الصرف فلا مجال له في ذلك، ذكره الرازي في المحصول 80».

قال الصاحبي: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي»[2]. وأما قول الخليل في أواخر الكتاب المنسوب إليه وهو العين «هذا آخر كلام العرب» فمؤول أو **مفترى** عليه، أو ربما يريد أن آخر ما وقع تحت يديه ودوّنه.

وقال: «إن لُغة العرب لم تنته إلينا بكلّيتها، وإن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير، وإن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير»[3].

فالنقل سِمَة من سِمَات اللُّغة العربية، وعرّفه ابن الأنباري في لمع الأدلّة بقوله: النقل هو الكلام العربي الفصيح الخارج عن حدّ القلة إلى حدّ الكثرة، وقسمه إلى قسمين: تواتر وآحاد.

فأنا التواتر فلُغة القُرآن الكريم وما تواتر من السُّنّة وكلام العرب[4].

---

(1) **شذرات الذهب**، 4/ 182.
(2) **أحمد بن فارس**، ص47.
(3) **الصاحبي**، ص67.
(4) **لمع الأدلّة**، ص83.

إن لسان العرب أفضل اللُّغات وأشرفها وأجود الألسنة وأكملها بوجوه وخصائص توجد فيه ولا توجد في غيره، فتشترك اللُّغات جميعاً في صفات منها:

1 - أشكال الحروف وكتابتها ومخارج أصواتها.

2 - في النحو والصرف.

3 - في البلاغة والبيان.

4 - في أساليب أهلها الفكرية والنفسية.

5 - في مقدرة اللُّغة على هضم الثقافة عند الآخرين واستيعابها.

6 - في الأخذ من اللُّغات الأُخرى وإعطائها.

7 - في القياس.

8 - في التعريب.

9 - في الاشتقاق.

10 -في المفردات البدوية.

وتنفرد كلّ لُغة بسِمَات وخصائص تميّزها عن غيرها، وهنا أقول: إن العربية تمتاز بخصائص مميّزة منها:

1 - **الإعراب**: وهو من أهم خصائص اللُّغة العربية والتي لا تكاد تشاركها فيه أي لُغة أُخرى عدا الألمانية، قال ابن فارس: «فإن الإعراب فيه تميّز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلّمين». وظهرت خصيصة الإعراب واضحة جلّية في القُرآن الكريم، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1][2]، فالمعنى يقتضي رفع العلماء على أنه فاعل ونصب اسم الجلالة على التعظيم «مفعول به»؛ لأن المراد هو حصر الخوف من الله في العلماء، لا حصر الخوف من العلماء في الله.

(1) سورة فاطر، من الآية: 28.

(2) **الصاحبي في فقه اللُّغة.**

والهدف الرئيس من اهتمام العرب باللُّغة العربية وإعرابها، كان مردّه إلى أنها لُغة القُرآن الكريم، وقد أكد الباحثون «أن كلّ الدراسات اللُّغوية العربية قد بدأت أو نشأت لخدمة العقيدة والدِّين، ثم بعد ذلك اتجهت لخدمة اللُّغة لذات اللُّغة»[1].

2 - **الكتابة العربية**: من الخصائص أيضاً أن ما يُكتب يُقرأ إلا أن هناك بعض الحروف التي تُكتب ولا تُقرأ، ومنها على سبيل المثال: الألف بعد واو الجماعة، وأل الشمسية، وواو عمرو، كما أن هناك حروفاً تحذف ويلفظ بها في الكتابة مثل هذا، وهؤلاء (هذا، هاؤلاء)، وقد تشاركها بعض اللُّغات في ذلك، ولكن باختلاف الأهداف.

3 - **الاشتقاق**: وهو مظهر من مظاهرها الدالّ على الحيوية والقدرة على التطوّر والتجديد، وقسم عند العلماء إلى مطّرد ونادر، فالمطّرد هو الأخذ من أسماء المعاني التي يُراد بها الأحداث، وكذلك الأفعال. أما النادر فهو الذي يؤخذ من الأسماء الدالّة على الأعيان ''الناس''، ويكثر المطّرد في الأفعال والصفات وأسماء الزمان والمكان واسم الآلة (والصفة المشبهة، والمصدر، وأفعل التفضيل، واسم الفاعل، واسم المفعول).

وللاشتقاق ثلاثة أنواع:

1 - **الاشتقاق الكبير**: وهو ما تجمّعت فيه الحروف الثلاثة دون ترتيب مع الاتفاق العام في المعنى مثل (ج ب ر) تدلّ على الشدة في جميع تقليباتها الستة:

جبر: أخذ بالقوة، ومنه الجبروت.

جرب: منه رجل مجرّب، مارس الأمور فاشتدّت شكيمته ومنه الجراب.

بجر: القوي، ومنه الأبجر.

---

(1) الناعوري، **خصائص اللُّغة العربية**، ص16.

برج: منه البرج لمناعته وقوته.

رجب: رجبت الرجل إذا قويته وعظمته.

ربج: فالرباجي الذي يفتخر بأكثر من فعله، ويعظم ويقوي أموره[1].

2 - **الاشتقاق الصغير أو الاشتقاق العام**: وهو ما اتفق فيه ترتيب الحروف وعددها مع إمكانية زيادة بعض الحروف الأُخرى (ضرب، ضارب، مضروب، تضارب، ضرّاب).

3 - **الاشتقاق الأكبر**: وهو ما ارتبطت فيه بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعاني «يقابل الجِناس الناقص في البلاغة، ارتباطاً غير مقيّد بنفس الأصوات، بل بنوعها العام، وترتيبها فحَسْب مثل: هدر الحمام وهدل، أمشاج وأوشاج، ضربة لازم وضربة لازب، فوم وثوم. ويرى ابن فارس أن الاشتقاق الأكبر هو إيجاد كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر، فيقولون مثلاً: حوقل من (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وبسمل من (بسم الله الرحمن الرحيم). وربما يُطلق على هذا ما يسمى بالنحت، وهذا التعريف أكثر دقة، وهو إخراج كلمة جديدة لم تكن موجودة».

ونلاحظ أن الاشتقاق في العربية يهدينا إلى كثير من مفاهيم العرب ونظرتهم إلى الوجود وعاداتهم القديمة، فمثلاً العقل عندهم هو الذي يعقل صاحبه عن الشرب، والمسكن هو مكان السكينة، والشريف مشتق من الشرف، وهو الارتفاع فهو مرتفع على الناس بأخلاقه ومكارمه. وما يلاحظ على الاشتقاق في العربية أنه من نفس الكلمة، بتغيير قليل. ولكن في اللُّغات الأُخرى كالإنجليزية مثلاً فما يقابل الاشتقاق هو عندهم الإلصاق بمعنى أن الكلمة تلحق بها حروف في آخرها، فمثلا كلمة write تعني كتب، واسم الفاعل writer فنلاحظ إلصاق er في آخرها.

(1) مجد محمد الباكير البرازي، **فقه اللُّغة العربية**، ص33-34، دار لاوي الأردني.

4 - **القياس**: وهو حمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلة جامعة، أو هو استنباط مجهول من معلوم، أو تقدير الفرع بحكم الأصل، أو إلحاق الفرع بالأصل بجامع، ومعناه التقدير، ومنه المقياس أي المقدار[(1)].

ظهر القياس بين مدرستي البصرة والكوفة؛ حيث اقتصر البصريون على جواز القياس على الكثير المسموع، في حين أسّس الكوفيون القياس على كلّ ما رُوي عن العرب مهما قلّت شواهده، ممّا دعا أبا علي الفارسي وتلميذه ابن جنّي إلى القول: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»[(2)]. والقياس عملية مستمرة تعيش مع الإنسان منذ طفولته حتى وفاته، فكثير من الأشياء لا نعرفها، فنقيسها على ما نعرفه، غير أنه في بعض الأحيان تكون قياساتها خاطئة، وينتشر هذا حتى يصبح شاذّاً.

5 - **التعريب**: ومعناه نقل الأسماء غير العربية إلى الاستعمال العربي لما فيه من فوائد تُغني اللُّغة العربية بذخيرة من الكلمات، كما أن التعريب يُمدّنا بكثير من المصطلحات. وقد عرّفه أبو حيان في شرح التسهيل بقوله: «العجمي عندنا كلّ ما نقل إلى اللسان العربي من لسان غيره سواء كان من لُغة فارس أو الروم أو الهند أو البربر، أو الإفرنج أو غير ذلك»[(3)].

وقد وضع علماء العربية علامات يُعرف بها الدخيل من الأصيل، أوجزها فيما يلي:

الأولى: أن ينقل ذلك أحد أئمة اللُّغة.

الثانية: خروجه عن أوزان الأسماء العربية «إبريسم»، فإن مثل هذا الوزن مفقود في العربية.

الثالثة: أن يكون أوله نون ثم راء، نحو: نرجس، فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية.

(1) ينظر: الأنباري، **لمع الأدلّة**، ص93.
(2) السيوطي، **الاقتراح**، ص108.
(3) السيوطي، **الاقتراح**، ص45.

الرابعة: أن يكون آخره زاي بعد دال، نحو: مهندز، وذلك لم يرد في كلمة عربية.

الخامسة: أن يجتمع فيه الصاد والجيم «صولجان» جص.

السادسة: أن يجتمع في الاسم القاف والجيم: جوسق، جلّق (دمشق).

السابعة: أن يكون خماسياً أو رباعياً عارياً من أحرف الذلاقة وهي: الباء والراء والفاء واللام والميم والنون(1).

6 - **المفردات البدوية**: الغالب على نشأة اللُّغة طابع البادية، فحفلت بالمسميات البدوية المادية التي وقعت تحت حس البدوي، غير أن هذه اللُّغة بما فيها من خصائص المرونة، والاشتقاق، والتأثّر باللُّغات مجتمعة، قد استوعبت الحضارة الإسلامية فيما بعد، واستوعبت مفاهيم المسلمين غير العرب. ومن هنا نلاحظ أن بعض الألفاظ تحمل معنيين: لغوياً واصطلاحياً، مادياً ومعنوياً، والأمثلة كثيرة على ذلك.

7 - **الترادف**: هو إطلاق عدة كلمات على مدلول واحد، وقد امتازت العربية عن غيرها بكثرة المترادفات، فاجتمع فيها ما لم يجتمع في لُغة سامية مثلها. فعلى سبيل المثال، جمع للثعبان نحو مئتي اسم، وكتب الفيروزآبادي كتاباً في أسماء العسل، فذكر أن له أكثر من ثمانين اسماً.

8 - **الاشتراك اللفظي**: وذلك بأن يكون للكلمة الواحدة عدة معانٍ تُطلق على كلٍّ منها على طريق الحقيقة لا المجاز، وهذا يقابل الترادف مثلاً: الخال = أخو الأم، والشامة في الوجه، السحاب، البعير الضخم، الأكمة الصغيرة.

9 - **التضاد**: هو أن يُطلق اللفظ على المعنى وضده، فمثلاً: «الجَوْن» هو الأبيض والأسود، والجلل: في الجليل والهيّن (هذا مصاب جَلَل، كلّ مصيبة تخطتك جلل) البَيْن (الفراق والوصل).

---

(1) المرجع السابق، ص45-46.

10 -**العَروض**: وهو خصيصة من خصائص العربية، ويعرف به ميزان الشعر صحيحه من سقيمه.

11 - **حفظ الأنساب**: وما يعلم أحد من الأمم عُني بحفظ النسب عناية العرب.

12 - **الهمز**: انفردت العربية بالهمز في آخر الكلام مثل: قرأ، ولا يكون الهمز في اللُّغات الأُخرى إلا ابتداء.

13 - **الحروف الخاصة**: انفردت العربية بحروف خاصة لا توجد في لُغات غيرها، وهي الضاد والحاء والطاء، كما انفردت بالألف واللام التي للتعريف، كقولك: الرجل، الفرس، ولم تكن في لُغة سوى العربية(1).

القرآن الكريم واللُّغة العربية:

من المعلوم أنه «لا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بغير العربية»، ولذلك نزل القُرآن الكريم بلُغة العرب وأساليبها في الخطاب، وكان في القُرآن الكريم ما في هذه اللُّغة من الظواهر اللُّغوية التي بلغ بها نهاية البلاغة، ومرتبة الإعجاز، وفي مقدّمة هذه الظواهر ظاهرة الإعراب، وهي الخصوصية الأولى لهذه اللُّغة، ومنها الحقيقة والمجاز، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، والإيجاز والإطناب، وغيرها(2).

وقد أكّد القُرآن الكريم نفسه عروبته من هذه الناحية، وذكرها في كثير من آياته منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾(3).

---

(1) من رقم 6 حتى 13 جمعت من مصادر مختلفة أغلبها من السيوطي، **الاقتراح**، و**المزهر** له أيضاً.

(2) ينظر: المرحوم د. إبراهيم رفيده، **بحوث في اللُّغة والفكر**، ص121، ط: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

(3) سورة يوسف، الآية: 2.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(1).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(2).

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(3).

ومع تأكيد القُرآن الكريم حقيقة عروبته، نفى أن يكون فيه لسان غير عربي في آيتين من آياته هما: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(4).

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾(5).

يقول الإمام الشافعي -رحمه الله: «فأقام حجَّتَه بأن كتابَه عربيٌّ، في كلّ آية ذكرناها، ثم أكّد ذلك بأن نفى عنه -جلّ ثناؤه- كلَّ لسان غيرِ لسان العرب»(6).

ومع ذلك أعجزهم بأسلوبه المتميّز الذي هو سرّ إعجازه وتحدّاهم أن يأتوا بمثله.

والعرب كانوا يتحدّثون هذه اللُّغة بالسليقة والوراثة، فلم يكونوا يعرفون النحو؛ حيث لم تدعهم الحاجة لذلك حتى ظهر نور الإسلام ونزل القُرآن الكريم بلغتهم وخرج الناس من شبه الجزيرة العربية داعين ومبشّرين بالدِّين الجديد في لغته العربية. ودخل الناس في دين الإسلام، وتكلّموا وتعلّموا لغته، وعندئذ توحّد المسلمون في العقيدة واللُّغة. ولذلك يلاحظ أن عدد

(1) سورة الشُّعراء، الآيات: 192-195.
(2) سورة الزمر، الآيتان: 27-28.
(3) سورة الزخرف، الآية: 3.
(4) سورة النحل، الآية: 103.
(5) سورة فصلت، من الآية: 44.
(6) الإمام الشافعي، **الرسالة**، تحقيق: أحمد شاكر، ص47، (د. ط).

المسلمين من غير العرب الذين ألّفوا وكتبوا عن اللُّغة الجديدة أكثر بكثير من العرب، وبذلك أصبحت العربية عالمية مقدسة[1]. والجدير ذكره أنه بعد أن شارك غير العرب العرب في الحديث بالعربية، دبّ إلى كلامهم اللحن -وهو عيب في الكلام من حيث القواعد- وغار العرب على لغتهم وخاصة إذا كان اللحن مرتبطاً بآيات القُرآن الكريم، وفزع فريق منهم إلى ابتكار علم النحو وهو الإعراب الذي كان أول علم عوضاً من السليقة. ثم تتابعت العلوم الأُخرى، وكلّها ذات علاقة وثيقة بالقرآن الكريم كعلم التفسير والفقه وعلم الأصول وعلم القراءات. فاللُّغة العربية مَدينة في علومها وانتشارها للقرآن الكريم. هذا وقد واجهت العربية صراعات عنيفة في القرون الأولى للإسلام منها ''الشعوبية'' التي تُعادي العرب وتحتقر لغتهم وآدابهم. ثم توالت الحروب الصليبية واكبتها حروب أُخرى تحارب الحرف العربي وتنادي بأن تكتب العربية بالحرف اللاتيني، وتتخلص من الإعراب. وبذلك ينقطع المسلم عن لُغة القُرآن الكريم بالقضاء على لغته. وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية على أن الجهل بالعربية يُفسد تأويل القُرآن الكريم وتفسيره، ولهذا عدّ الشاطبي أسباب الضلال إلى:

1) الجهل باللُّغة 2) تحسين الظنّ بالعقل 3) اتباع الهوى

ومن هنا، يُمكن القول إن الربط بين العربية والقرآن الكريم وثيق، فالعربية إنما عاشت بالقرآن وازدهرت بالقرآن وهي وسيلتنا لفهم القرآن[2].

اللُّغة العربية أم اللُّغات:

ما دامت اللُّغة العربية هي اللُّغة التي أوقفت منذ بدء الخلق لأن تكون لُغة البشر المطلقة التي فطروا عليها أصلاً، وطبيعة لغتهم في الدنيا ولغتهم في الآخرة. وكونها كذلك يجعلها متمتعة بمزايا خصوصية خاصة، طبعت عليها

(1) ينظر: مقدمة تحقيق أحمد شاكر لـ **رسالة** الإمام الشافعي، ص124.
(2) ينظر: د. إبراهيم رفيده، **بحوث في اللُّغة والفكر**، ص145 وما بعدها.

حقاً وحقيقة، وعُرفت بها فعلاً وواقعاً، هذه المزايا هي: القِدَم، التمام، والجمال، والقداسة، والخلود[1].

قدم اللُّغة:

العربية لُغة قديمة بل سحيقة القدم، فهي لُغة أول إنسان وجد على الأرض. فآدم عليه السلام كان يتحدث العربية، ذلك لأن لغته كانت لُغة أهل الجنة، ولُغة أهل الجنة هي العربية كما أخبرنا الحديث الشريف: «أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»[2].

فاللُّغة التي كانت تتكلّم بها الجماعة الأولى -آدم وذريته- عربية، وكذلك الشعب الأول الذي يكون بعد الجماعة الأولى كانت لغته العربية، والأمة الأولى المتكوّنة عن الشعب الأول كانت لغتها العربية، وهذه الأمة الأولى هي التي عناها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[3] وهي الأمة العربية ذاتها، وبالتالي كانت منشأ الأمم كافة، ومن ثم كانت لغتها منشأ اللُّغات قاطبة.

ومع تعاظم هذه الأمة في شبه جزيرتها، تناثرت جماعاتها في مشارق الأرض ومغاربها، واتخذت مواطن إقليمية جديدة، وكوّنت أمماً مستقلة ذات لُغات خاصة متفرّدة أصلها العربية الأم. وما لبثت أن تحوّلت إلى لهجات محلّية مُستحدثة، ثم إلى لُغات قومية معيّنة تتباين قليلاً أو كثيراً عن اللُّغة العربية الأم، وذلك تبعاً لتباين أُممها عن الأمة العربية في المكان والزمان.

وقِدَم اللُّغة العربية ليس قِدَماً تاريخياً أثرياً ميتاً، بل هو وجودي حيوي حتى ينسحب على جميع الأزمنة، فنرى أن اللُّغات اليونانية والفارسية واللاتينية وغيرها قد اندثر معظمها إن لم تكن كلها، ونجد أن العربية قد بقيت

(1) ينظر: إسماعيل العرفي، **اللُّغة العربية أم اللُّغات ولُغة البشرية**، ص11 وما بعدها.
(2) رواه الطبراني في **المعجم الكبير**، والحاكم في **المستدرك**.
(3) سورة البقرة، من الآية: 213.

مستمرة على حالتها تحمل النبوات والرسالات السماوية، وتشيد الحضارات والمدنيات دون انقطاع. ولم يكن قِدَم العربية أرضيّاً بل كان قِدَمها سماوياً يرتبط بالقرآن الكريم، هذا الكتاب الذي كان مكنوناً في الأزل الغيبي بلغته العربية المثلى حيث يقول الله ﷻ في: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[1].

وإنه لقِدَم يجعل من اللُّغة العربية سراً من الأسرار الربانية الحكيمة ومعجزة من المعجزات الخارقة.

تمام اللُّغة:

بلغت من هذا التمام الكلّي الشمولي الجامع ما كانت معه الأنموذج المثالي الأمثل، الذي خلا من أيّ نقص واستغنى عن أية زيادة، وعزّ على أيّ تبديل وتبرّأ من أية شائبة. ولم يكن تمام اللُّغة العربية ناجماً عن تطوّر تكاملي تدريجي متنامٍ، استغرق أزماناً تاريخية مديدة، كما لم يكن ناتجاً عن عمل تشكيلي مصنوع، وإنما كان شيئاً ذاتياً مطبوعاً نشأت عليه هذه اللُّغة منذ أن وُجدت، ولازمها طَوَال حياتها وسيلازمها إلى أبد الآبدين.

وأيّ وصف بالتمام يفوق وصف اللُّغة العربية باحتوائها وحي الله وتنزيله، فهي بلا شك قادرة على احتواء ما دونه، أيّاً كان وفي أيّ زمان ومكان.

وليس التمام سكونياً جامداً، ولكنه تمام حيوي خلّاق، فهو يجمع بين الثبات والتجديد أو بين الأصالة والحداثة. وهذا التمام أيضاً يُتيح للُّغة العربية أن تترجم إليها أية لُغة من لُغات العالم ترجمة عالية تفوق الأصل نفسه، غير أنها تحول دون أن تترجم إلى أية لُغة من هذه اللُّغات وتُعطي نفس المعنى في العربية، ذلك لأن التام قادر لتمامه على احتواء الناقص، على حين أن الناقص قاصر لنقصانه عن احتواء التام، وإذا ما احتواه سيكون ذلك بشكل زائف أو مشبوه أو هزيل. ومن تمام اللُّغة أنها شملت كتاب الله كما قال

(1) سورة البروج، الآيتان: 21-22.

حافظ:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات[1]

قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[2].

جمال اللُّغة:

جمال سبى عقول أهلها، فحملوها في أرواحهم وقلوبهم وضمائرهم، قبل أن يحملوها على ألسنتهم وأقلامهم وأسماعهم وأبصارهم، حتى لقد عرفوا بها أرباب فصاحة وبلاغة وأصحاب بيان وحكمة وينبعث جمالها مما جُبلت عليه من فصاحة وبلاغة رائعتين تتمثّلان فيما تتصف به من روحانية ومثالية، وقيمية وإنسانية وحضارية مثلى، وفيما تتسم به من إيجاز وتركيز، وتعدّد وتنوّع وترتيب وتنظيم، وتناسق وتناغم، واتساق وانسجام، وجلاء ووضوح، ورونق وصفاء، ورقة ونعومة، وشفافية ورهافة، وعذوبة ورخامة، وخصب وغزارة... وغيرها من سِمَات تعجز عن تعدادها الأقلام.

ولما كان جمال اللُّغة العربية فصاحة وبلاغة، فإن ترجمتها إلى لُغات أُخرى تذهب بجمالها، ومن هنا كان وجوب تحريم ترجمة القُرآن الكريم.

ولا يقتصر جمالها على البلاغة والفصاحة، بل يتحدّاه إلى خطها الفني العجيب، وحَسْبنا ما خلّفه هذا الخط من زخارف ونقوش ورسوم وتزيينات في المصاحف والكتب والحليّ والنقود والمساجد والقصور، فهي جميلة وهي مرسومة منظورة، وجميلة وهي منطوقة مسموعة، وتلك ميزة عزّت أن تكون في لُغة من اللُّغات إلا في اللُّغة العربية.

---

(1) حافظ ابراهيم، **الديوان**.

(2) سورة الأنعام، من الآية: 38.

قداسة اللُّغة العربية:

اللُّغة العربية لُغة مقدّسة، بل لُغة فائقة القداسة، وقداستها هذه قداسة سماوية مباركة وأرضية مكرّمة.

أما قداستها السماوية، فتنبعث من كونها لُغة الوحي والتنزيل، فهي لُغة الأنبياء والمرسلين، وهم جميعاً من العرب، على اختلاف أقوامهم وأزمنتهم ومواطنهم، وعلى تعدّد تعاليمهم وصحفهم وأسفارهم وكتبهم السماوية المقدّسة، بدءاً من آدم عليه السلام الذي كان هبوطه في قلب الجزيرة العربية، ومروراً بأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي عمّم التوحيد ونشره وثبّت دعائمه في الأرض العربية، وانتهاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، الذي شيّد صرح هذا التوحيد ديناً واحداً، وإنساناً واحداً، ووطناً واحداً، وأمة واحدة، وحضارة واحدة، ورسالة واحدة إلى الأبد.

وأما قداستها الأرضية فهي انعكاس لقداستها السماوية، وهي تنبعث من كونها لُغة الحضارة الإنسانية المثلى المتجسّدة في الحضارة العربية الخالدة في الدِّين والأدب والفلسفة والعلم والفن.

وتبلغ اللُّغة العربية منتهى قداستها الجامعة في القُرآن الكريم، حيث تأخذ هذه القداسة شكل قداسة نورانية طاهرة يفيض بها كلّ حرف من حروفه، وكلمة من كلماته، وجملة من جمله، وآية من آياته، وسورة من سوره. فهذه قداسة لُغة جمعت بين الإلهي والأرضي في معجزة كونية فريدة جلّ صانعها العلي القدير.

خلود اللُّغة العربية:

خلودها سرمدي تجدّدي مبدع، فهو خلود سرمدي لكونه يبدأ بالأزل ويجري في الآن ويصبّ في الأبد مهيمناً على الزمان كله.

وهو خلود تجدّدي ومبدع، كونه يتلاءم في صيرورته وكينونته مع كلّ عصر يفيض بالخير والعطاء.

واصطفيت هذه اللُّغة لتكون أول لُغة يتخاطب بها الوجود البشري أمة واحدة، وتكون لغتهم في نهاية وجودهم فيها بشرية واحدة، ولغتهم في الآخرة خليقة واحدة.

واللُّغة التي حوت الكتاب الخالد لا بدّ أن تكون خالدة محمية من الله حماية لكتابه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1].

وهذا الخلود يعني أن العربية غير خاضعة إطلاقاً لعوامل الضعف أو التحلّل أو التحجّر أو الاضمحلال، وهي العوامل التي تخضع لها عادة جميع لُغات العالم بلا استثناء.

من خلال هذه المزايا للُّغة العربية والتي تتمثّل في: القِدَم والتمام والجمال والقداسة والخلود تتولّد مجموعة أفكار منها:

1 - في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2]، يرى العرب أن الله تعالى قد علّم الإنسان الأول آدم عليه السلام الأسماء وهي اللُّغة البشرية تامة كاملة. ومعنى ذلك أن اللُّغة لدى الإنسان هي توقيف إلهي محض، ومعناه لدى آدم عليه السلام كان تعليماً تلقينياً مطبوعاً وليس كما يرى بعض المفكّرين من أن اللُّغة ناشئة عن اصطلاح بشري موضوع أو عن محاكاة بشرية لأصوات الطبيعة، أو عن تطوّر تدريجي للأصوات البشرية.

وهذه النظرية العربية ترى أن آدم عليه السلام كان كائناً أسمى ذا منشأ إلهي وليس كائناً أدنى ذا أصل حيواني، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[3].

إنه مخلوق تام كامل الخلق منذ أن وجد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4].

(1) سورة الحجر، الآية: 9.
(2) سورة البقرة، من الآية: 31.
(3) سورة ص، الآيتان: 71-72.
(4) سورة التين، الآية: 4.

أنه خليفة الله في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(1).

أنه ذو منزلة رفيعة عند الله، وهذه المنزلة تفوق في رفعتها منزلة الملائكة المقرّبين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾(2).

أنه مخلوق ممتاز وقد امتاز على غيره بالعلم والبيان قراءة وكتابة، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(3)، وقال أيضاً: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾(4).

2 - قبل الإسلام كان هناك نوعان من اللهجات الفصحى: لهجات خارجية ولهجات داخلية. أما الخارجية فالتي نشأت خارج شبه الجزيرة العربية، والتي يُطلق عليها «السامية» كالسومرية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرية والحبشية والمصرية. أما الداخلية فهي التي نشأت داخل الجزيرة العربية عبر شعوبها وقبائلها المتعدّدة، وكانت هناك خلافات بسيطة طفيفة وهذه الخِلافات تتباين اتساعاً وضيقاً لقُرب أو بُعد هذه اللهجات من قلب الجزيرة ومن مكة المكرمة والكعبة المشرفة.

وقد انقرضت اللهجات الخارجية بانقراض دولها ومدنيّاتها، وقد حلّت اللُّغة العربية الأم في بعض مواطنها السالفة. وأما اللهجات العربية الداخلية فقد انتهى بها المطاف في لهجة قريش بعد أن دُوِّن بها القُرآن الكريم تبعاً لما أُمِر به الكتّاب جامِعُو القُرآن الكريم.

3 - ليست العامية العربية لُغة، وإنما هي بالنسبة للُّغة العربية لهجة، ولهجة فحَسْب، وهي لهجة سلبية شاذة؛ لأنها لا تحمل من مقوّمات اللُّغة

(1) سورة البقرة، من الآية: 30.
(2) سورة البقرة، من الآية: 34.
(3) سورة العلق، الآيات: 3-5.
(4) سورة الرحمن، الآيات: 1-4.

العربية أيّ شيء حتى إنها لا تكاد تمّت لها بصِلة، وتتمثّل السلبية الشاذة في:

أ - أنها لا تقوم على أية أسس قاعدية ثابتة أو واضحة محدّدة، فهي سريعة التغيّر دائمة التبدّل.

ب - كونها غير قابلة للكتابة وبالتالي غير مُمكنة الكتابة والقراءة، وهي محصورة في حدود الكلام المنطوق.

ج - عجزها عن حمل الأفكار والعواطف والمعارف والعلوم الإنسانية الرفيعة، فألفاظها غير الفصيحة وجملها الركيكة تجعلها عاجزة قاصرة.

وفي ظنّي أن وجود اللهجات العامية كان مرتبطاً ومتزامناً مع وجود العناصر الأعجمية الدخيلة في المجتمع العربي الإسلامي الجديد، حيث لم يكن لها وجود قبل ذلك التاريخ، فهي لهجة طفيلية غريبة طارئة لا أصول قوية لها ولا تاريخية.

4 - ليست اللُّغة العربية لُغة العروبة فحَسْب، بل هي أيضاً لُغة الإسلام، وعلى هذا كما يجب على العربي أن يعلمها خير العلم، كذلك يتوجّب على المسلم أن يتعلّمها خير التعلّم باعتبارها لغته الدِّينية.

ولكي يكون المسلم مسلماً حقاً، أي: صحيح الإسلام كامله مستنيره، يجب عليه أن يكون عربي اللسان حقاً، فمثلاً التشهّد الذي هو جوهر الإسلام لا يُقال إلا باللُّغة العربية، والصلاة التي هي أم العبادات في الإسلام لا تؤدّى إلا باللُّغة العربية، والأذان الذي هو إعلام الناس بوقت الصلاة لا يُرفع إلا باللُّغة العربية. ولا نبالغ إذا قلنا إن كتب الفقه والحديث والسيرة والشريعة والتاريخ لا تُستوعب إلا باللُّغة العربية.

ولما كانت العربية هي الحامل الفذّ للإسلام فقد أضحى لزاماً على الشعوب الإسلامية أن تجعلها لغتها الدِّينية والحضارية إلى جانب لغتها الحياتية القومية الخاصة، وبذلك يتسنّى لكافة شعوب العالم أن تلتقي على صعيد لغوي ديني واحد.

وبديهي أن ربع سكان العالم اليوم مسلمون إذا ما جعلوا العربية لغتهم فستكون الخطوة الأولى نحو جعلها لُغة البشرية عامة.

ولقد عبّر أبو منصور الثعالبي في كتابه فقه اللُّغة وسر العربية تعبيراً ممتازاً عن قيمة اللعة العربية، وأهميتها وقدرها وفضلها بالنسبة إلى المسلم حيث قال: «من أحبَّ الله تعالى أحبَّ رسوله محمداً ﷺ، ومن أحبَّ الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب. ومن أحبَّ العربية عُنيَ بها وثابر عليها وصرف همَّته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلام خير المِلَل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللُّغات والألسنة، والإقبال على تفهّمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقّه في الدِّين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد. ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة، وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء، والزند للنار. ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحّر في جلائلها ودقائقها، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان، لكفى بهما فضلا يَحْسُنُ فيهما أثره ويطيب في الدارين ثمره»[1].

اللُّغة العربية اليوم:

أصبح الاهتمام باللُّغة العربية اليوم ضعيفاً في البلاد العربية والإسلامية، ففي البلاد العربية يزعمون أنها لُغة البلاد، وأن الطالب يسهل عليه الوقوف على دقائقها وتعلّمها متى شاء. وفي البلاد الإسلامية إنها لُغة الدِّين والمتديّنون هم الذين عليهم البحث في هذه اللُّغة.

لذلك انقسم أبناء العرب في قضية الاهتمام بالعربية إلى فريقين:

(1) الثعالبي، **فقه اللُّغة وسر العربية**، ص29.

الفريق الأول: يناصر الفصحى ويعطف عليها، ولكنه يعتبرها محصورة في ما وجد من كتب اللُّغة كلسان العرب، وصحاح الجوهري، والقاموس المحيط، والمصباح المنير، وتاج العروس، وغيرها، وكلّ كلمة لا وجود لها في تلك المعاجم فإنها غير عربية ويجب الوقوف عند الوارد، ولا يبيح الاشتقاق تمسكاً بقواعد الصرف. وهذا القول وإن حفظ اللُّغة من هجمات اللُّغات الأُخرى، إلا أنه يفتح مجالاً للطعن في أن العربية عاجزة عن استيعاب الحضارة ولا تتسع للفنون الحديثة والصنائع والأدوات، في حين أنها اتسعت لكلام الله ﷻ، وهذا حافظ إبراهيم يتحدّث على لسان العربية بقوله:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدُّر كامن ... فهل سألوا الغوّاص عن صَدَفاتي

الفريق الثاني: يرى أن اللُّغة العربية صعبة في تعلّمها، معقّدة في استعمالاتها، وينادي باستخدام اللهجات العامية بدل الفصحى. وهذه معركة كبيرة نشبت بين أنصار اللُّغة وأعدائها منذ قرنين من الزمان، ولا أراني بحاجة إلى الحديث عنها هذا. والصواب في هذا ما كان على اعتدال وتوسّط، فلا يضيع القديم بإهماله ولا تنغلق اللُّغة على نفسها حتى لا تفسح المجال للآلات والأدوات والعلوم الحديثة، وذلك بإيجاد مصطلحات توافق الأسلوب العربي وتركيبه أو باستعمال المترادفات التي أوجبها العصر.

فهذه اللُّغة العربية القيمة الشريفة، وبسبب المزايا التي ذكرت سابقاً، جعلها الله لسان العلم لمن يدينون بالإسلام، ويتبعون محمداً ﷺ النبي العربي، وأوجب الله تعلّم جزء منها على جميع المسلمين، فافترض لأجلها قراءة القُرآن الكريم في الصلوات. ومن المعلوم أن القُرآن الكريم لا يصحّ أن يُقرأ بغير العربية؛ لأن القُرآن الكريم نزل بلُغة العرب، وقد عاب القُرآن الكريم على من أغفل تدبّر آياته بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ

ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1]، وحثّ على التدبّر الذي كان جعله سبباً لنزوله بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2]. ومعلوم أن التدبّر والفهم يقتضيان معرفة تلك اللُّغة. ويُستفاد من هذه الآية وجوب تعلّم اللُّغة العربية نطقاً وفهماً؛ لأن لُغة القُرآن الكريم هي اللُّغة الجامعة للشعوب الإسلامية، والمؤهّلة لتوحيدهم. هذا وقد فطن أعداء العربية لأساليب خطيرة لمحاربتها، وتفنّنوا في الهجوم على أقوى رابطة بين المسلمين وهي اللُّغة العربية، فقد ألفوا جبهتين قويتين هما: ترجمة القُرآن الكريم، والاستعاضة عن اللُّغة العربية الفصحى باللهجات العامية. فترجمة القُرآن الكريم لو كانت جائزة لأمر رسول الله ﷺ سلمان الفارسي أن يترجم القُرآن الكريم إلى الفارسية، وبلالاً الحبشي أن يترجم القُرآن الكريم إلى الحبشية، وصهيباً الرومي أن يترجم القُرآن الكريم إلى الرومية، ولكن أصرّ أن يكتب إلى كسرى وقيصر والمقوقس باللُّغة العربية مع وجود من يُتقن لغاتهم من المسلمين آنذاك. ومن المعلوم أن الترجمان يعبّر عن فكر المترجم له وكما يقولون: «إن الترجمة خيانة للأصل». وهل باستطاعة أحد يترجم القُرآن الكريم أن يقول هذا هو مراد الله؟ وما معنى أن الله تعالى تحدّى العالم كله أن يأتوا بسورة أو آية من مثله وعجزوا عن ذلك!؟ أليس من يعجز عن الإتيان بالمثل في التركيب والفصاحة هو أشد عجزاً أن يأتي بمعناه كاملاً.

وأنا هنا لا أقول بعدم جواز التفسير، وإنما بعدم جواز الترجمة، وهناك فروق بينهما.

فالتفسير يحفظ الأصل، ويبقى ذلك الأصل مرجعاً، وبذلك يكون التفسير بمثابة شرح، وأما الترجمة فهي استعاضة عن الأصل، فتصبح أصلاً مستقلاً مستغنياً عن المُترجَم منه، ويكون المقصود من تحريم الترجمة ألّا يصيب القُرآن الكريم ما أصاب الكتب السماوية (التوراة والإنجيل). وما مراد

(1) سورة المؤمنون، الآية: 68.

(2) سورة ص، الآية: 29.

التفسير مسموح به ومطلوب لإفهام غير الناطقين بالعربية، فلماذا نلجأ إلى الترجمة؟ ومسألة الترجمة لا يُراد بها إلا هدم الإسلام؛ لأن العربية هي التي تجمع المسلمين في الأقطار كافة، فالتفاهم بلُغة واحدة أمر سهل، ولكن العدول عنها إلى لُغات أُخرى هو عودة إلى التشتت وتعدّد المفاهيم.

وأما إحلال العامية محلّ اللُّغة العربية الفصحى، فأمر يدعو إلى التفرقة والتشرذم. فإن ما نراه اليوم في القنوات الفضائية العربية، أمر يدعو كلّ دولة أن تكون لها لهجة خاصة تُبعدها عن اللُّغة الأم، وبذلك ينتج عنها تفريق الأمة حيث أدرك أعداء الفصحى أنها تكون سبب تنفيذ برامجهم، لتكون الغلبة للعامية وتسود لُغة الاستعمار، وبالتالي يغلب المسلمون على أمرهم وتكون الكلمة لأنصار العامية المرتبطين بالغرب. والغريب أن الذين ينادون بالعامية ويريدون القضاء على الفصحى يدّعون أن الوقت لا يسمح بتعلّم العربية الفصحى، في حين أنهم يدعون لتعلّم اللُّغات الأُخرى ويعتبرون أن اللُّغات الأُخرى حية، وأن اللُّغة الفصحى ميتة. وهذا في ظنّي الذي دعا العرب لفرض تعلّم اللُّغة الأجنبية في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، في وقت لم يتمكّن الطالب فيه من إتقان لغته الأصلية. زِدْ على أن الذي يتحدّث لُغة غير العربية مقدّم في الوظيفة على من تمسّك بلغته وفي بلده.

والذي يُثير العجب أن بعض حكّام العرب اليوم يتحدّثون في لقاءاتهم الإذاعية والمؤتمرات بلُغات غير العربية، لأنها لُغة الأسياد، ولُغة الأمم الراقية، وأن العربية لا تتسع لخياله الفاسد ولا لذهنه المتجمّد، ولا لرأيه الأهوج، ولا لفكره المختلّ. وربما التمس له العذر في أنه لم يتعلّم هذه اللُّغة في صغره ولم يقف على دقائقها وخصائصها. والذنب هنا على ولاة الأمر الذين أماتوا العربية، وحاربوها في مناهجهم وصحفهم ومجلاتهم ومجتمعاتهم ونواديهم.

ليس معنى هذا أن ندعو إلى عدم تعلّم لُغة غير العربية، وأن تعلّم أي لُغة غيرها محظور وغير مقبول، كلا إنه مقبول شرعاً وعقلاً، والدليل أن

رسولنا الكريم ﷺ يقول: «من تعلّم لُغة قوم أمن شرهم» لأن سوء التفاهم له أثر بليغ في إثارة الفتن، وكم من حروب نشأت بسبب سوء الفهم للُغة الخصم. ولو رجعنا إلى حياة القدوة سيدنا محمد ﷺ، لوجدنا أنه أمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يتعلّم العبرية؛ لأن معرفة لُغة أمة يساعد على كشف حالها الغامضة والوقوف على نواياها وما تضمره وتشعر به(1).

لم نقرأ في التاريخ القديم أو الحديث أن أمة من الأمم يكون المرجع في لغتها غير أبنائها إلا اللُّغة العربية؛ حيث نراهم يذهبون إلى الغرب لطلب العلم بالعربية من أشخاص لا يجيدون حتى النطق بالحروف العربية، ويُعَدُّ ذلك من المفاخر حيث تكتب أمام أسمائهم أنه تحصل على شهادة كذا من البلد الأوروبي كذا، وربما كان النجاح في العمل لمن تخرّج في جامعة شهر اسمها في العالم في علوم أُخرى غير العربية.

إن العرب لا ينكرون الجميل لمن قدّم خدمة للغتهم، فكثير من العلماء الأعاجم قدّموا للمسلمين خدمات كثيرة في اللُّغة والتفسير والفقه والأدب، وقد ركن العرب إلى تأليفهم؛ لأنهم يخدمون لُغة الدِّين الذين يتمسّكون به، لُغة القُرآن الكريم الذي يتعبّدون به، فهم يخدمون اللُّغة الرابطة بين شعوب المسلمين بالتفاهم والتخاطب. ولكن ما عذرنا -نحن العرب- اليوم أن نركن إلى معاهد الأوروبيين والأمريكيين وتحقيقاتهم في علومنا. ولا تربطنا بهم أي علاقة في العقيدة أو الدِّين أو حتى العنصر واللُّغة.

ختاماً أعود إلى أن الله قد أمرنا بالمحافظة على القُرآن الكريم ولغته، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحسن منكم أن يتكلّم بالعربية فلا يتكلمنّ بالفارسية؛ فإنه يورث النفاق»(2). والمراد ليس الفارسية بذاتها وإنما كلّ لُغة يتكلّم بها بلا داعٍ؛ لأنه يرجّحها على اللُّغة العربية، لُغة القُرآن الكريم، ولعلّ هذا هو النفاق الذي عناه ﷺ.

(1) محمد سعيد العرفي **اللُّغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية**، ص38.

(2) رواه الحاكم في **المستدرك**.